

المحاضرة الأولى: في مفهوم فلسفة الأخلاق وإشكالياتها التأسيسية

(الجزء الثالث)

علي كريم

ثالثاً: الإشكاليات التأسيسية الكبرى (The Great Problematics)

تزخر فلسفة الأخلاق بمعضلات فكرية تشكل "العصب الحي" للمحاضرات الجامعية. سنناقش هنا أهم ثلاث إشكاليات، مع ربطها بالسياقين الغربي والإسلامي.

إشكالية "الوجود" و"الوجوب" (The Is-Ought Problem)

تُعرف أيضاً بـ "مقصلة هيوم". (Hume's Guillotine) "فجر الفيلسوف ديفيد هيوم هذه القنبلة المنطقية في كتابه "رسالة في الطبيعة البشرية"، مشككاً في إمكانية الانتقال المنطقي من "الحقائق" إلى "القيم"²⁴.

أ. جوهر الإشكال الهيومني

لاحظ هيوم أن الفلاسفة يبدوون عادة بتقرير جمل وصفية "خبرية" عن العالم ما هو كائن (Is -)، مثل: "الإنسان كائن اجتماعي"، أو "الله هو الخالق". ثم فجأة، وبدون مقدمات منطقية، ينتقلون إلى جمل معيارية "إنشائية" "ما يجب أن يكون (Ought -)، مثل: "إذن، يجب على الإنسان أن يصدق"، أو "يجب عبادة الله".

يرى هيوم أن هناك "فجوة منطقية (Logical Gap)؛ فالنتيجة لا يمكن أن تحتوي على رابطة (Copula) "جديدة (وهي "يجب") لم تكن موجودة في المقدمات التي تحتوي فقط على ("يكون"). فالحقائق العلمية والوجودية لا تولد بذاتها قيماً أخلاقية. 18 هذه

الإشكالية هددت أساس "الأخلاق الطبيعية" و"القانون الطبيعي"، ومهدت الطريق لـ "الوضعية المنطقية" التي اعتبرت الأحكام الأخلاقية خالية من المعنى المعرفي.²⁷

ب. النظير الإسلامي: جدلية "التحسين والتقيح"

يمكن موازنة هذه الإشكالية في التراث الإسلامي بالمعركة الكلامية الكبرى حول "التحسين والتقيح العقلين" بين المعتزلة والأشاعرة²⁸.

- المعتزلة (أنصار الوصل بين الوجود والوجوب): يرون أن للأفعال صفات "ذاتية" من الحسن والقبح (حقائق وجودية)، وأن العقل قادر على إدراك هذه الصفات واستنباط حكم "الوجوب" منها. فالعدل حسن لذاته، ولذلك أمر الله به. هنا، "الوجود" (صفة العدل) يقتضي "الوجوب" عقلاً²⁹.
- الأشاعرة (أنصار الفصل - مقصلة لاهوتية): قطعوا الرابط بين الوجود والوجوب العقلي. يرون أن الأفعال في ذاتها (كحقائق وجودية) لا تحمل قيمة أخلاقية ملزمة. القيمة تأتي حصراً من "الشرع" (الأمر الإلهي). "الصدق" ليس واجباً لأنه حقيقة وجودية، بل لأن الله أمر به. هذا الموقف يقترب بنويماً (رغم اختلاف المنطلق) من فصل هيوم بين الحقائق والقيم، حيث لا يمكن استنتاج الحكم الشرعي/الأخلاقي من مجرد العقل المجرد دون نص²⁸.

إشكالية مصدر الإلزام الأخلاقي (Source of Moral Obligation)

لماذا "يجب" عليّ أن أكون خلوقاً؟ من أين يستمد القانون الأخلاقي سلطته القهرية؟ تتنازع هذه الساحة ثلاث مرجعيات كبرى:

أ. المرجعية الدينية (الأمر الإلهي)

ترى أن الله هو مصدر القيم، والخير هو ما أمر الله به. الإلزام هنا "متعالٍ" (Transcendent)، والدافع هو الامتثال والجزاء (الثواب والعقاب).

• في الغرب: نظرية الأمر الإلهي (Divine Command Theory) تواجه "معضلة يوثيفرو (Euthyphro dilemma) "هل الشيء خير لأن الله أمر به، أم أن الله أمر به لأنه خير؟³¹.

• في الإسلام: قدم الدكتور محمد عبد الله دراز في أطروحته الفذة "دستور الأخلاق في القرآن" حلاً عبقرياً. يرى دراز أن الإلزام الأخلاقي في القرآن ينبع من "السلطة العليا" لله، لكنه ليس إكراهاً خارجياً محضاً، بل يتجاوب مع "نداء الفطرة" الداخلي. القرآن يؤسس "للمسؤولية" الفردية القائمة على الاختيار، جاعلاً الإلزام مزيجاً من "الخوف والرجاء" (دافع نفسي) و"الحب والامثال" (دافع روحي)³².

ب. المرجعية العقلية (الواجب الكانطي)

يرفض كانط تأسيس الأخلاق على الدين (لأنه يراه خضوعاً) أو على السعادة (لأنها متغيرة). يرى أن الإلزام نابع من "الإرادة العاقلة" للإنسان نفسه. (Autonomy)

• الآلية: العقل العملي هو الذي يشرع القانون الأخلاقي لنفسه عبر "الأمر المطلق". الإنسان يطيع هذا القانون احتراماً لعقليته وإنسانيته. "افعل الواجب لأنه واجب"، دون انتظار أي جزاء⁵.

ج. المرجعية الاجتماعية (الضمير الجمعي)

يرى علماء الاجتماع، وعلى رأسهم إميل دوركايم (Durkheim)، أن المجتمع هو "الإله الوضعي" الذي يفرض القيم. الأخلاق هي "وقائع اجتماعية (Social Facts) "تمارس قهراً وإلزاماً على الأفراد.

• الآلية: الضمير الفردي ما هو إلا "صدى" للضمير الجمعي. نحن نشعر بتأنيب الضمير لأننا خالفنا الجماعة التي نستمد منها هويتنا. "الواجب" هنا هو صوت المجتمع فينا³⁵.

إشكالية الإطلاق والنسبية (Absolutism vs. Relativism)

هل القيم الأخلاقية حقائق كونية عابرة للزمان والمكان، أم هي أعراف ثقافية متغيرة؟

- النسبية الأخلاقية: (Moral Relativism) تجادل بأن ما هو "خير" في ثقافة ما (مثل تعدد الزوجات، أو التضحية البشرية) قد يكون "شراً" في أخرى. وعليه، لا توجد حقيقة أخلاقية واحدة، بل "أخلاقيات" متعددة. يستدل هؤلاء باختلاف الثقافات (Descriptive Relativism) ليستنتجوا أنه لا يحق لنا الحكم على الثقافات الأخرى¹⁷. (Normative Relativism).

- الإطلاقية الأخلاقية: (Moral Absolutism) تصر على وجود مبادئ ثابتة (مثل: تحريم تعذيب الأطفال، العدل، الصدق) تشترك فيها الإنسانية جمعاء، أو يفرضها العقل/الدين بشكل مطلق. يرى أنصارها أن النسبية تؤدي إلى "عدمية أخلاقية" واستحالة نقد الفظائع (كالإبادة الجماعية) إذا اعتبرناها مجرد "وجهة نظر ثقافية"³⁹.